القديسة مريم السائحة
والأنبا ابراهيم المتوحد

يوسف حبيب

مريد البرارى المسيح

القديسة مريم الثائبة

والأنبا ابراهيم المتوحد

القمص يشوع عبد المسيح

يوسف حبيب

مقدمة

هذه قصة (القديسة مريم التائبة والأنبا ابراهيم المتوحد) عثرنا عليها من عدة مراجع بلغات مختلفة وراعينا أن تكون القصة فى أسلوب قصصى تمثيلى بقدر الإمكان كما لم ننس أن نربط الناحية الروحية بالناحية التاريخية ، وتعليل بعض الحوادث وتوضيح هذه القصة :

لقد أحبنا الرب محبة غير محدودة ! فلا نقرأ عن أية واقعة فى الكتاب المقدس نتحدث عن موضوع السقوط والتوبة إلا ونقرأ بعدها صدى شديد لمحبة الله وعواطف رأفته وخلاصه المنتظر ويمكن أن يصور لنا الكتاب الله كنادم على الشر ، فهل الله انسان فيندم حاشا ! لكن ليظهر لنا محبته نحونا وترقبه لاية حجة حتى يعطينا الخلاص ! !

وهو يريدنا بذلك أن نبادله نحن البائسين غير المستحقين لك المشاعر . لقد عبر القداس الكيرلسى عن ذلك بقوله « إذ سررت بنا نحن الخطاة غير المستحقين أن نخدمك » .

فانه يسر بتوبتنا ورجوعنا فيظهر حبه لنا ويريدنا أن نستجيب لندائه كى يورثنا معه ، ونحن ما أشقانا حينما لا يكون لنا شعور البنوة من نحو أبوته . . لماذا نصبح غرباء عن الرب بمشاعرنا الردية ؟ ! .

إن الرب ينتظر الضالين ، يستقبل الراجعين اليه ويلبسهم الحلة الأولى بعد فقدانها ويذبح لهم العجل المسمن ويجهز لهم خاتم الاختصاص بملكه بل خاتم الخطبة لنفوسهم ويلبسهم حذاء البر ليسلكوا فى طريق جديدة ويصالحهم مع أبيه ويعطيهم علامة المصالحة وهو عربون الروح فى داخلهم لكى يشهد أنهم أبناء وورثة . وبالإجمال انه يفرح ! لأنه وجد الخروف الضال.

٣٠ طوبة تذكار نياحة القديس ابراهيم المتوحد

طبعة ثانية سنة ١٩٦٩

الفصل الأول

أنبا ابراهيم المتوحد

هو القديس إبراهيم ولد ببلاد ما بين النهرين (بمدينة الرها - Edessa) فى بداية القرن الرابع الميلادى من أبوين غنيين تقيين فشب على حياة التقوى محباً للعبادة حتى أنه إشتاق منذ صباه أن يكرس نفسه لله وحده ويخصص له كل محبته، وظل مدة طويلة يحدث الله باشواقه هذه طالبا منه أن يدبر أمر خلاصه.

هروبه وتكريس حياته

توالت الأيام وإزدادت معها أشواق القديس لتتميم ما شعر به فى نفسه ويقال إنه هرب مساء يوم من بيته ، ولما شعر والده بما فعل أرسل أناساً يطلبونه وبعد مايقرب من ١٧ يوماً وجدوه فى مغارة تبعد عن المدينة بنحو ميلين فأسرع اليه أبوه مع بقية أقربائه باذلين جهدهم لكى يرجع معهم غير أن القديس كاشفهم بما فى نفسه وحدثهم عن أباطيل هذا العالم معلناً محبته القوية للانفراد فى البرية للتعبد لله . . . ولما شعروا بعجزهم عن إقناعه بالرجوع تركوه ورجعوا إلى مدينتهم، غير أنهم قبل أن يغادروا

مكان القديس سألوه عن أى شيء يطلبه فأجابهم بأنه يطلب شيئاً واحداً هو ألا يفتقدوه فيما بعد أو يقلقوه فى خلوته . فأجابوه إلى طلبه لعلمهم أنه سوف يرحـــل عن ذلك المكان إلى آخر لا يعلمونه إن هم خالفوه فى طلبه .

توهد القديس

أغلق القديس باب مغارته ولم يترك سوى كوة صغيرة كان يتناول منها مأكله ومشربه فى أيام معينة . وكان القديس وقتئذ يبلغ العشرين من عمره . ويقال إنه قضى فى توحده ما يقرب من الخمسين عاما وقد كان مثالا حسناً للمتوحدين فكان بسيطا للغاية لا يملك سوى إناءين من الخشب أحدهما للماء والآخر للأكل هذا بجانب حصيره الذى يرقد عليه وثوبه الذى يرتديه وكان من شعر الماعز وكان يسبح فى حضرة الله بلاهم ولا ثقل ولا فتور . وعرف عنه أنه مع شدة تقشفه كان وديعاً تلوح على وجهه علامات البشاشة والمحبة والسلام دائماً .

كرازة القديس

«إذاً نسعى كسفراء عن المسيح كأن الله يعظ بنا» (٢ كو٥: ٢٠)

لا نعلم نظام توحد هذا القديس - وهل كان أبا لتلاميذ كثيرين

أو لا ؟ لأنه قد ذكر أن أسقف تلك المنطقة ، وهو القديس يعقوب السروجى على الأرجح ، طلبه اليه . . .

لكن القديس قام ليهرب من مكانه ولما علم أن هناك قرية قريبة منه مملوءة بالوثنيين ولم يستطع أحد أن يبشر فيها بالإيمان المسيحى من قبل ، مضى اليها لأنه شعر بدافع قوى يدفعه للشهادة على اسم المسيح .

اضطهاد الوثنيين للقديس

لم تكد أقدام القديس تستقر فى تلك القرية حتى بدأ ينادى لهم باسم المسيح ويعلن إيمانه ، فتجمع حوله الوثنيون واستهزأوا به ولعنوه بآلهه معلنين عظمة آلهتهم الكاذبة . لكن القديس إستمر فى كرازته ، فلما رأى الأشرار منه هذه العزيمة القوية أمسكوه وضربوه بقساوة ووحشية ثم طردوه خارج القرية .

صرف القديس الليل كله مصلياً من أجلهم ومتذللا أمام الله يستعطفه ويطيل السجود أمامه من أجل هؤلاء حتى يفتقدهم الرب برحمته ويعرفهم خلاصه وكان يشكر الله لأنه حسبه أهلا لان يهان من أجل إسمه ثم طلب من الله أن يقبل منه ذبيحة جسده وينعم عليه بإكليل الشهادة .

إحتمال ومثابرة وصبر عجيب ؟

مضى الوثنيون فى اليوم التالى لينظروا ما كان من أمر القديس فتعجبوا لما وجدوه يصلى حيث تركوه ، لأنهم ظنـــوا أنه قد خوفا منهم فعمل القديس بعظهم بكلام الحياة لعل قلوبهم تتأثر لكن حدث أن إشتد غيظهم عليه فضربوه حتى أشرف على الموت ثم ربطوه وجروه خارج القرية وتركوه ومضوا ، غير أن الله الذى ينجى قديسيه من جميع أتعابهم نجاه من أيديهم فلما أفاق من مرضه وقف يشكر الله ويصلى من أجلهم ثانية .

ولما ذهب الوثنيون فى اليوم التالى إلى مكان القديس مؤملين أن يجدوه قد فارق الحياة وجدوه واقفاً يرتل بالمزامير وهـو مبتهج القلب جداً فاشتد غيظهم عليه غير أنهم مضوا وتركوه هذه المرة فقد تحيروا من أمره .

الرب يحرك قلوبهم

لقد حان الوقت الذى طالما انتظره هـــذا الأب القديس وإحتمل الكثير من أجله — وقت الإثمار . إذ عندما اجتمع الوثنيون ذات يوم لأمر ما تذكروا هذا القديس متعجبين من

قوة إحتماله وصبره العجيب ووداعته وكانت هذه فرصة لعمل روح الرب فيهم ليؤمنوا إذ حرك الرب قلوبهم فاتفقوا جميعاً على أن يمضوا إلى القديس .

الرب يضم الذين يخصونه الى كنيسته

لا نعلم بالضبط ما الذى دفع الوثنيين الى أن يمضوا اليه سوى أن ذلك كان من الله كما حرك فى القديم قلب كورش ملك فارس لإطلاق شعب الله (عزرا : ١ : ١ ، ٢) .

. . . ذهبوا يبحثون عنه ليسألوه عن سر جمال حياته وكيفية إحتماله الغريب وعن فرحته وسعادته رغم ما أنزلوه به من الآلام والأتعاب الشديدة ! ولماذا قابلهم بهذا الصفح العجيب وأظهر لهم هذا الحب الكثير ؟ ! !

أما هو فخاف لأول وهلة من مقابلتهم ولما أطمأن اليهم رحب بقدومهم فسألوه عن إلهه ؟ فأجابهم إلى سؤالهم . . .

وظل القديس يكلمهم ويعظهم بكلام الحياة الأبدية حتى نسوا أنفسهم عنده إلى المساء ، وكانوا منصتين إلى حديثه المؤثر اللذيذ لأنه كان يكلمهم عن (التسامح المسيحى ومحبة الأعداء والصفح

عن المسيئين ، ومحبـــة الله لنا نحن الخطاة . .) فتأثر بعضهم وانطرحوا أمامه باكين طالبين منه أن يصفح عما أساءوا به اليه وانصرفوا نادمين من أمامه . كانوا يعودون اليه لسماع كلام الحياة وأخيراً طلبوا منه أن يمدهم على اسم الثالوث الأقدس فأرسل واستدعى أسقف المنطقة الذى لما حضر عمد منهم خلق كثير وأقام القديس بهذه المنطقة بعض الوقت ليثبت فى الإيمان الذين تعمدوا ثم أودعهم لنعمة الله ومضى . وعند خروجه من القرية رسم عليها علامة الصليب ثلاث مرات .

عاد القديس إلى حياة التوحد ثانية دون أن ينال بغيته فلم يحصل على إكليل الشهادة غير أنه شكر الله لأجل هذه الثمار التى صنعها الرب على يديه ، لكنه رغم ذلك كان يفكر .

لماذا حرم من الاستشهاد ؟ ! !

(سنرى أن الرب يكشف له ارادته المختارة ، لأنه لا بد أن يرجع هذا القديس إلى التوحد ثانية لكى يستعد لأمر هام - فالإرادة الإلهية أعدت له إبنة حتى تكون فى رعايته إلا وهى القديسة مريم التائبة) .

الفصل الثـــانى

طفولة القديسة مريم والأنبا ابراهيم

بدأت قصة هذه القديسة بهذه الكلمات :

« ما كاد يستقر هذا القديس فى وحدته حتى سمع أصوات كثيرين يطلبونه خارج الفلاية . وكانوا ملحين فى طلبهم كما لو كان ذلك لأمر هام جداً . . ! ! فخرج الأب اليهم ليعرف ماذا يطلبون . ففوجىء بأنهم يقدمون اليه طفلة صغيرة لم تتجاوز السابعة من عمرها هى إبنة أخيه التى كان قد مات أبواها وتركاها وحيدة ولم يكن لها أقرباء يمكنهم أن يتكفلوا بها سوى هذا الأب الطوبارى . » .

حمل صغير بين يدى الراعى

يا لحكمة الله العالية وبعد أفكاره عن الإستقصاء لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيراً . . ! ! ؟ .

فقد سمحت عناية الله أن يبقى هذا القديس دون أن يستشهد حتى يكرز باسم المسيح ويرد قرية بأكملها إلى الإيمان المسيحى كما سمح أن يرجع إلى وحدته حتى يتسلم هذه الوديعة التى ألقيت على عاتقه الآن فتكون فى رعايته .

رأى هذا الأب أن أفضل طريقة للمحافظة على هذه الوديعة هى أن يسكنها فى الغرفة الداخلية لقلايته وقد كانت هناك نافذة بين الغرفتين ومن خلالها كان يعلمها المزامير وقراءة الكتاب المقدس . كانت الصبية مطيعة لعمها وكانت تتمثل به فى أعماله فكانت تسهر معه فى تمجيد الله وترتيل المزامير باشتياق وغيرة عظيمتين . وسارت على هذه الطريقة فى الحياة حتى نمت فى الفضيلة . . .

رهبنة القديسة[1]

مرت الأيام وكبرت الصبية حتى وصلت إلى سن لا يسمح ببقائها ملاصقة لقلاية القديس . فبنى لها هذا الأب قلاية قريبة منه لتسكن فيها بمفردها ، ولم يتركها بدون رعاية منه ، غير

---

١) المعلوم من تاريخ الرهبنة أنه كانت هنـاك أديرة تدعى أديرة العذارى بقرب المدن ولم تعرف رهبنة العذارى فى الصحراء إلا بصورة تنكرية وكن فى هذه الحالة إما أن يتنكرن فى زى الرجال مثل القديسة ايلاريه وغيرها ، أو يخضعن لأب إعتراف يعلم بذلك مثل القديسة إنسطاسية والأب دانيال ومثل هذه القديسة .

أنه تعهدها دائماً بالصلاة من أجلها إلى جانب ذلك كان يفتقدها فى فترات ليتعرف على احتياجاتها وليزودها بما تحتاج إليه من إرشادات .

بقيت الفتاة بعد ذلك فى عيشتها الهادئة لأنها أحبت هذا النوع من الحياة وكانت تسأل عمها أن يصلى كثيراً من أجلها لكى تستمر فى هذه الحياة المقدسة ، لذلك كانت تسير من قوة الى قوة لا تعرف الكلل فى طريق القداسة . لقد كان تقدمها السريع فى سلم القداسة وثباتها فى الأعمال الصالحة سبباً فى إبتهاج قلب عمها ومسرته لأنها كانت مثل الغرس النامى المثمر ، وكم كان سكونها ووداعتها ودموعها وطهارتها وجهادها الكثير للالتصاق بالرب !!

« قضت على هذا الحال عشرين عاماً كالحمل الوديع وكالحمامة الطاهرة العفيفة لكن شهوات طبيعتنا الفاسدة لابد أن تثور ضدها وعدونا كان يجول كأسد زائر يطلب من يبتلعه »

† † †

الفصل الثالث

حروب الظلمة وسقوط القديسة

الأسد والدب يخطفان الحمل (١ صم ١٧ ـ ٣٧)

حدث فى نهاية العشرين عاماً الأولى من عمر الصبية أن إبتدأ الشيطان يثير ضدها حرباً عواناً ويحيك شراكه وينصب فخاخه الشريرة لإصطيادها حتى تقع فى حبائله من جهة ، وليضرب عمها الشيخ القديس بالحزن والقلق والحيرة فينشتت عقله ، فكانت حروبه موجهة إلى الإثنين معاً .

لذلك بدأت قتالات الخطية تحارب الصبية .

أولا ـ القديسة وحرب العالم « محبة العالم عداوة لله »
(١ يو ٢ : ١٥)

ظلت القديسة فى سكونها وجمال عبادتها طوال تلك الفترة السابقة التى كانت بمثابة جنة عدن ، لكن ما لبثت أن حاربتها أفكار محبة العالم ، فكانت تستدعى القديس ابراهيم وتخبره عن أتعابها وهو كان يصلى كثيراً من أجلها حتى لاينشغل عقلها بأى أمر من الأمور الأرضية ـ لأنها مرة شكت له من أفكار

تضايقها بشأن الميراث الذى كان قد تركه لها أبواها (وقد كانا غنيين جداً) .

فكان القديس يوضح لها حيل إبليس وفخاخه وكان يطلب من الله أن يرفع عنها ثقل الأفكار الشيطانية ويحفظها بنعمته . ثم اتفق القديس معها ـ لأنها كانت على ما يبدو قد وصلت إلى سن الميراث الشرعى ـ على كيفية إستخدام هذا الميراث حسناً كما بين لها أن الراهب لا ينبغى أن يكون له مقتنيات بل بالحرى أن يعمل بيديه ليأكل مما جعلها تطلب منه أن ينفق كل مالها على الفقراء والمحتاجين وبهذا ارتفعت عنها الأفكار الشريرة .

ثانياً ـ القديسة وحروب الجسد

« الله غير مجرب بالشرور وهو لايجرب أحداً »
(يع ١ : ١٣)

كان أحد الإخوة يتردد على القديس ابراهيم ، ربما لطلب المشورة ، فكان فى باديء أمره يحضر لأغراض مقدسة ، فاستغل عدو كل بر مجيء ذلك الأخ لتتميم إرادته الرديئة فحرك قلبه بالشر من نحو القديسة وملأ نفسه بأفكار شريرة . . . فتحركت فيه الشهوة الرديئة . . .

أهمل هذا الأخ محاربة هذه الأفكار وتركها تملأ نفسه ولم يطلب معونة الله ضدها ، كما لم يكشفها لمرشده الروحي .

ويقال أنه ظل على هذا الحال مدة سنة كاملة دبر فيها إبليس طريقة سقوطه مع القديسة .

† † †

سقوط القديسة

ويحي أنا الإنسان الشقي من
ينقذني من جسد هذا الموت ؟ !
(رو ٧ : ٢٤) .

لسنا نعلم لماذا بدأت القديسة تفتر في طلب معونة الله بقوة لأنها شعرت بفتور يجتاح حياتها الروحية ربما نتيجة أفكار شريرة(١) ولم تخبر عنها بذلك خجلا منه ، إلى أن كان يوم من الأيام بذل الشيطان فيه كل جهده لكي يستميل قلب القديسة أيضاً للشر وجاء الأخ الشقي فتهيأت الفرصة لسقوطهما معاً .

---

١) أحياناً يكون الفتور ناتجاً من حروب الأفكار الشريرة والاهمال في طردها .

هاوية السقوط

« إنسان كان نازلا من أورشليم
إلى أريحا فوقع بين لصوص . . . »
(لو ١٠ : ٣٠)

هذه القديسة حالما انحدرت من علو حياتها الروحية الأولى وقعت بين لصوص :

١ ـ شيطان الكآبة :

ما أن سقطت الفتاة المسكينة في فعل الشر حتى تمزق قلبها حزناً وندماً إذ أحست بفداحة الخطية فمزقت مسح شعرها الذي كانت ترتديه وابتدأت تلطم وجهها بيديها وازداد حزنها جداً وأتاها شيطان الكآبة الذي أحاطها بغمامة من الأحزان حتى يحول دون تفكرها في خلاص الرب العجيب للخطاة وحتى يعطل توبتها. فكانت تتمنى أن يدركها الموت سريعاً فتتخلص من الحزن والعار وإذ استبد بها الحزن لم تجد أمامها منفذاً ولا مهرباً ولا مينماء تركن إليه فكانت أمواج الأفكار الشريرة تتقاذفها وكانت تبكي وتعول وتصرخ ولسان حالها يقول : ليتني ما كنت ولدت لأعيش على هذه الأرض لأني لم أعد خيـــة فلست إلا ميتـــة . . . !

٢ ــ شيطان اليأس :

تملك عليها أيضاً شيطان اليأس الذى يعقب السقوط وملأ عقلها بأفكار كثيرة فجعلها تقول لنفسها : لقد أضعت حياتى وفقدت سنى نسكى وأفسدت طهارتى ودموعى وضيعت صلواتى وسهرى بل أغضبت إلهى وأهلكت نفسى . واحسرتاه على ! ماذا سيقول عمى القديس حينما يعرف سقطتى ؟ ! سوف يتحطم قلبه بالحزن المرير . . . ويلى لقد صرت هزءا وسخرية للشياطين اليوم كله ! هل لى أن أعيش بعد ؟ ! ! وإزدادت فى بكائها الشديد وأردفت تقول : واحسرتاه على ما فعلته ؟ ! ويل لى ويلى ! ماذا حدث لى ! أى أمر شرير صنعت ، من أى علو إنحدرت ! ماذا حدث لى ! أى أمر شرير صنعت ، من أى علو إنحدرت ! لقد نزلت إلى أريحا . . . كيف إظلم عقلى وغطى الضباب الكثيف قلبى ؟ ! لست أدرى كيف تدنست كيف لم أكن عارفة بما فعلت وإلى أى مكان أهرب الآن وأين أختبىء ؟ ! أين أجد حفرة ألقى بنفسى فيها . . . هل كان كل هذا نتيجة تعليم عمى لى طوال هذه المدة لحفظ طهارتى حتى ما تكون نفسى غير مدنسة للختن السماوى الطاهر يسوع غير المائت ؟ ! ويلى ماذا أفعل الآن ؟ ! ! وفى تلك الأثناء ظلت المسكينة تتخبط دون مشورة أحد فأتاها أيضاً .

٣ ــ شيطان الحزن(١)

إستغل هذا الشيطان فرصة تجول القديس فى الجبل وحده وملأ عقل الفتاة بأفكار كثيرة فكانت ترثى نفسها قائلة :

إننى لا أجسر أن أرفع بصرى نحو السماء ــ أنا التى أصبحت ميتة أمام الله والناس فكيف أستطيع الذهاب إلى مغارة عمى وهل أقدر أن أفتح فاى وأتكلم مع الله القدوس وأنا موحلة بكل الأدناس ؟ ! ولو تجاسرت على هذا الفعل أفلا تنزل نار من السماء وتحرقنى فأصبح مثل الرماد ؟ ! ! ! (٢) ماذا أفعل وماذا أختار ؟ إنه خير لى أن أنطلق إلى مدينة أخرى لا يعرفنى فيها أحد لأنى امرأة شريرة ميتة لا أمل ولا رجاء لها بعد الآن فى مثل هذا المكان . . .

الأفكار تتجمع معاً عليها :

استولت هذه الأفكار على المسكينة ورجعت إليها إفكار قطع

---

١) مثل شيطان قطع الرجاء الذى يأتى حينما يشعر الإنسان بخطاياه وبعدما يستفيق من غفلته حتى يمنعه من الاعتراف بخطاياه مما يجعله يهلك بها

٢) هذه هى الصورة الرديئة التى يصورها لنا عدو كل بر بأفترائه على الله المحب للبشر الذى لا يشاء موت الخاطىء مثلما يرجع ويحيا نفسه .

الرجاء فيئست من إصلاح سيرتها وإذ إستبدت بها الأفكار جداً قامت مسرعة وذهبت إلى إحدى المدن ولم يدعها إبليس تقف عند هذا الحد - لأنها قصدت أحد بيوت الدعارة(١) لتعيش هناك حيث ظلت به نحو سنتين كان القديس ابراهيم أثناءها فى حيرة لأنه لم يعلم ما حدث لها فلذلك كان شديد التضرع والبكاء باحثاً عنها . . .

وانتظر القديس مدة طويلة لعل الفتاة ترجع إلى قلايتها إذ كان يظن أنها ربما قد إنفردت بعض الوقت فى الجبل فى خلوة روحية . . . !!

١) ليست الرغبة فى الخطية والأشواق المكبوتة هى فقط كل مايدفع الانسان إلى عمل الخطية ويتمادى فيها بل أيضاً اليأس من الخلاص وفقده الرجاء من الاصلاح .

الفصل الرابع

الراعى يبحث عن الحمل

الرب يكشف أمرها للقديس

« يرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاماً » (أع ٢ : ١٧)

ظل القديس الشيخ فى حيرته وصلواته الكثيرة ودموعه غير المنقطعة طالباً من الله أن يعرفه ماذا حدث لإبنته إلى أن تحنن الرب الإله على شيخوخته وصبره إذ عرفه فى حلم فى رؤيا الليل خبرها . حيث أنه شاهد تنيناً ضخماً والرعب يمشى فى ركابه وفى صفيره وكأنه قد خرج من بقعة ما وقفز إلى قلاية القديس حيث كانت هناك حمامة إفترسها ثم عاد الى مكانه . . .

ولما استيقظ الأب على أثر ذلك الحلم أخذ يبكى وازدادت حيرته لأنه ظن أن الشيطان ربما أثار الإضطهاد على كنيسة الله فخرج كثيرون عن الإيمان وحادوا عن الطريق . . . لذلك سجد القديس على الأرض مصلياً بلجاجة قائلا أنت أيها الرب الإله العارف بكل شىء محب البشر وحدك عالم بما تعنيه هذه الرؤيا.

تكرار الحلم يكشف حقيقته

بعد يومين من الحلم الأول كان القديس لا يزال ساهراً منذ اليوم الأول مما اضطره الى الرقاد فنام، ورأى فى نومه نفس

الوحش السابق فى حـــلم وقد دخل الفلاية ووضع رأسه تحت مخلبيه وإنشق إلى نصفين فوجدت الحمامة حيـة داخله فد الأب يده بسرعة وأخرجها من جوفه .

وعندما استيقظ القديس من نومه مضى لوقته إلى قـــلاية القديسة آملا أن يجدها هناك فنادها أولا من الخارج قائلا : أيتها الصبيـة مريم ما الذى يؤلمك ، هوذا لك الآن وقت طـويل لم اسمع صوت تسبيحاتك قط ؟ .

ولما لم يسمع سوى صدى صوته دخل المغارة فلم يجدها أيضاً ففهم أن هذه الرؤيا التى رآها تخص القديسة لذلك صرخ مولولا ونادبا إبنته قائلا :

« الويل لى لأن ذئباً مفترساً قد سرق الحمل ، إبنتى الوديعة أخذت فى الأسر .. وكان يصلى وينتحب حتى كانت الدموع تخنق كلماته وكان يستغيث بالله قائلا يا مخلص العالم إرجع ابنتى (مارى) الحمل إلى مرة أخرى واختطفها للحياة الأبدية لكى لا أموت كمداً عليها فتحدر شيخوختى بحزن إلى الهاوية..لاتهمل طلبتى ياسيدى - لكن اللهم أسرع وأرســـل رحمتك لمعونتها وإنقاذها حتى تردها سليمة من جوف الوحش ... »

حيلة الشيخ لخلاصها

« . . . مختطفين من النـــار مبغضين حتى الثـوب المدنس من الجسد » . (يهوذا ١ : ٢٣)

« صلوا بعضكم لأجل بعض لكى تشفوا صلاة البار تقتدر كثيراً فى فعلها » (يع ٥ : ١٦ ، ١٧)

مضى هذا الاسبوع المؤلم على نفس الشيخ وكان طوال الحزينا صائماً مصلياً من أجل الفتاة ... ولما لم يحتمل أكثر من ذلك صبراً طلب أحد إلى أصدقائه القديســـين المحبوبين لديه (وهو القديس مار افرآم الذى كان يقضى خلوة روحية فى تلك الأثناء بالقرب من ذلك الأب) أن يبحث معه عن مكان القديسة لعله يأتيه بأخبارها وما انتهت اليه .

وبعد عدة أيام عاد مار أفرآم وأخبر الشيخ بأنه علم أن الفتاة فى منزل (فندق) لارتكاب الخطية ...

وكان القديس الشيخ يقرأ فى التوراة فى ذلك الحين فتوقف فجأة عند الآية القائلة «أنت أشفقت على اليقطينة التى لم تتعب فيها فكيف لا أشفق أنا على نينوى المدينـــة العظيمـــة ... » (يونان ٤ : ١٠) فقد إقشعر بدنه من هول ما سمع ! فلم يجب

إلا بكلمات قليلة متقطعة حيث أنه قال لصديقه : إذهب أعد لى ملابس عسكرية وحصاناً . ولما أحضرها له لبسها لوقته وغطى رأسه بقبعة كبيرة لتخفى سماته كما حمل معه مبلغاً من المال .

فقال له صديقه : إلى أين أنت ذاهب ؟

فاجابه : جاهد معى هذا اليوم فى الصلوات من أجلى ومن أجلها . فقال له « ليكن إلهنا معك »

وهنا يقول القديس مار افرآم السريانى :

ثم رأيته وقد إمتطى الجواد بسرعة وقلق شديدين وانطلق به كما لو كان غازياً يريد أن يتجسس مدينة أو مملكة ليفتحها ويخشى أن يعرف أمره فيهلك ثم لم يلبث أن إختفى عن بصرى .

أما أنا المسكين أفرآم فجثوت على الأرض وظللت باسطاً يدى فى حزن شديد نحو الأب السماوى وكانت دموعى تهطل على الأرض وأنا لا أدرى بذلك فقد هالنى ما حدث وتأسفت لأمر الفتاة كما أثر فى حزن الشيخ وحيرته المؤلمة وجهـــاده الشديد لخلاصها . . .

تعالوا إلينا أيها الإخوة المحبوبين فى الرب ونعجبوا من أجل

أبينا ابراهيم المتوحد الذى خرج ليقاتل السلاطين الروحانيين لكى يخلص ابنة أخيه ويختطفها من فم الأسد والدب !

توجه الأب للتو إلى الفندق الذى كانت تقيم فيه إبنة أخيه المفقودة وبلهفة شديدة كانت عيناه ترقبان جميع من فى الفندق لعله يلمحها . ومرت الساعات الطويلة ولم يتيسر للشيخ أن يرى الإبنة مما إضطره أخيراً أن يتصنع المزاح مع صاحب الفندق قائلا « لقد سمعت يا صديقى أنه توجد لديك صبية جميلة ! فأجاب صاحب الفندق وهو ينظر إلى هيبة الشيخ ومركزه : —

بالحقيقة كما سمعت توجد هنا فتاة تدعى مريم .

حينئذ قال له الشيخ وكانت تلوح على قسمات وجهه مزيج من البشاشة والحزن : إذهب إحضرها الآن مع العشاء . ولما حضرت الصبية بعد برهة وإذ كانت ترتدى ملابس عديمة الحشمة أقشعر بدن الشيخ وتفككت كل أعضاء جسمه من الأسى المبرح، لكنه كان يجاهد مخفياً مشاعره ومحتفظاً ببشاشة وجهه مقاوماً الدموع . وذلك لئلا تكتشف الفتاة أمره وتلوذ بالفرار .

الفصل الخامس

القديس يحارب التنين ويهزمه

[بتدأ القديس الذى كان يرفع قلبه فى داخله أمام الله من اجل الفتاة يتحدث مع الابنة لكن الأمر لم يظل هكذا طويلا لأن الابنة قامت واقتربت من الشيخ . . . فما لبثت ان لمحت المسوح التى كان يرتديها أسفل ملابسه العسكرية كما اشتمت منه رائحة البخور الزكية ورائحة عرق النسك المقدس . امام كل هـــذه الأمور وقفت الفتاة جامدة لا تقدر على الحركة لأنه ثارت فيها ذكريات حياتها الأولى فى الصحراء .

وباللتأثير العجيب الذى احدثته تلك الذكريات المقدسة فى قلب هذه الفتاة بصلاة هذا القديس الشيخ فكانت كأنها السيف الحاد الذى نفذ الى أعماق نفسها مما جعلها تنهد من اعماقها بقوة فهطلت دموعها ويبدو أن آلام الندم بدأت تجتاح نفسها ، لذلك صرخت بدون وعى منها (الويل لى لأنى أتعس كل بنى البشر) لقد تذكرت الفتاة أيام عفافها فى البرية وأثرت فيها رائحة القداسة التى لهذا القديس . . . أما صاحب الفندق الذى أذهله الموقف فقال لها . يا مارى ما الذى يؤلمك حتى تنفجرين هكذا بالبكاء؟ لأن لك الآن مدة طويلة لم يسمع منك تنهد ولا أنين .

أجابت الفتاة : كنت أبقى سعيدة للغاية لو أنى تركت العالم من مدة طويلة . . .

وهنا تدارك الأب الموقف خشية أن ينكشف أمره فتمادى الفتاة فى الحديث فابتدأ يحول فكرها عن هذا الحديث المحزن ويخفف من سطوة أفكارها . وكان هو فى أعماق قلبه يصلى بحرارة قائلا (يارب عظيمة هى قوتك ليتك لا تجعلها تعرفنى الآن واذكر يارب بكثرة رحمتك تنهداتها وصرخاتها حتى تصنع رحمة وتخلص نفسها لان غير المستطاع عند الناس مستطاع عندك)وبعد ما أنتهى الشيخ من صلاته أخرج قطعة نقود ذهبية من جيبه وصرف بها صاحب الفندق قائلا: اعدد لنا عشاء فاخراً لنسلى هم هذا الصبية لانى أتيت من سفر بعيد .

القديس يكشف عن مشكلة الفتاة ويعالجها

(كل الاشياء تحل لى لكن لا يتسلط على شىء)

ابتدأ الشيخ فى تلك الاثناء يحدث نفسه قائلا (كيف يليق بى ان آكل لحما فى هذا المكان وأن أشارك هذه النفس الخاطئة ، وافقد سنى نسكى وتقشفى لاجل هذه النفس التائهة ! . . . إن كانت جموع الملائكة تسر حقاً برجوع الخاطىء عن ضلاله فكم بالاحرى يجب على ؟)

لقد تصرف الشيخ حسناً بأكله مع الإبنة الضالة وذلك لكيما يخلص نفسها من مخالب الاسد ويطلقها من أسر اليأس والشعور بفقدان الأمل فى إصلاح سيرتها. يا له من موقف عجيب وضرورى من أب مرشد مختبر بالنسبة لابنته الروحية التى سقطت ؟ !

إستغل الشيخ تلك اللحظة وابتدأ يخاطب نفسهـــا قائلا (يا قديسة يا إبنة المسيح ، هل انت مسرورة ومقتنعة بما انت فيه ! ! أو أنك غير ذاهبة ؟ لقد كنت كل أيامك ترقدين على حصير كيف ترتفعين الى مثل هذا السرير . . . ! إنظرى لقد أتيت من أجلك كل هذه الرحلة الشاقة وتحملت من أجلك هذه الأتعاب وأكلت وشربت معك ، كل هذا لكى أعرفك كم يحب الرب رجوعك ويعمل لكيما ترجعى الى رتبتك الأولى وتخلص نفسك التائهة . ثم اعقب لوقته بصوت معروف لها (يا ابنتى يا مارى) ثم جذبها من يدها خالعـــاً لوقته قبعته التى كان يرتديها ثم قال لها : يا ابنتى ألا تعرفيننى ؟ ألم أكن أنا الذى ربيتك . من الذى أفسدك ! ؟ وكانت كلماته مختلطة ببكاء مر .

الفصل السادس

توبتهـــــا ورجوعهـــــا

أستطرد الأب يقول لإبنة أخيه ـ التى كانت لا تزال طوال تلك الفترة جامدة كالحجر من الخوف والحزن . « كيف سقطت من علو السماء الى هذا الحضيض يا ابنتى ؟ . . . لماذا لم تخبرينى عندما اخطأت بأمرك حتى تركت نفسك فى يد الذئب ليفترسك هكذا ! ! كيف أوصلت نفسك إلى هذه الخسارة الفادحة ؟ عاد الأب يبكى بحرقة ، يا ابنتى لماذا لا تريدين أن تتحدثى معى؟ لقد أتيت بسببك الى هذا المكان . .

« دعى عنك هذا الخجل واتركى هذا الاثم لمن هو قادر وحده أن يحتمله عنا واتركى تعب الطريق على فسوف أحتمل عنك تعب الصوم والجهاد حتى ترجعى إلى رتبتك الأولى » .

وظل القديس يكلمها ويعزى نفسها حتى أفاقها من بالوعة اليأس ومن الكآبة التى حلت بها فتشجعت الفتاة رويداً رويداً حينما أحست بمحبة الشيخ العميقة لها والتى كانت تعكس لها محبة الرب للخاطىء الراجع فتجاوبت معه أخيراً وكانت كلماتها تنساب من فمها كأنها تنزلق مع دموع التوبة فقالت .

لا أستطيع يا أبى أن أنظر الى وجهك من فرط خزيى

وعارى ، بل كيف أرفع عينى الشريرتين إلى السماء نحو الله وأنا ملوثة بكل الأوحال الدنسة ؟ !

اعترافها

لما اخبرته بخطاياها حينئذ قال لها الشيخ كاشفاً عن عظمة سر الإعتراف ، خطيتك على أنا يا إبنتى أنا المسئول عنك أمام الله. فقط اصغ الى وأطيعنى كلامى وهلم الآن بنا كيما نعود إلى البرية وأرجو أن تكونى واثقة ومؤمنة بمراحم الرب وخلاصه ومواعيده الثابته كالجبال فى قبول الخاطىء الراجع . فأجابته والإنسحاق يملأ نفسها والحزى يغطى وجهها . إذا كنت واثقة إنى أستطيع اتوب وأن الله يقبل توبتى سوف أعود معك كما أمرتنى. ثم انها لما انتهت من كلامها المر ارتمت تحت رجليه باكية منتحبة وكانت دموعها تندفع بغزارة من عينيها كأنها مياه كانت محجوزة منذ زمان طويل اجتاحت نفسها موجة من الخشوع لكنها مع ذلك كانت تشعر بالراحة والتعزية ! وكان القديس يجاهد معها مبيناً لها ما صنعه الرب مع الخاطئة التى جاءت اليه فهى لم تؤثر على فداسته بل هو قدسها وقد خرجت مبررة من أمامه .

ثم قال لها : إنه ليس بجديد أن تميل طبيعتنا الى الخطية بل

الغريب هو أن نبقى فى خطايانا بعد ما سقطنا . . إفتحى عيون ذهنك وإطرحى عنك كلام العدو إبليس الذى سيكشف لك بؤسك إلى الدرجة التى فيها يخفى عنك قوة قيامة مخلصنا .

ثم أقامها ماسكا بيدها وقاما مسرعين قبلما يطلع النهار وانصرفا من الفندق دون أن يعلم بها أحد .

آثار الخطية تحاربها

كانت الفتاة تقياً جداً ولولا دفع الشيخ لها بقوة ما كانت خرجت معه بسرعة ثم احتجت له بأن لديها بالفندق بعض الذهب والملابس التى اكتسبتها من جراء حياتها الشريرة ، لكن القديس قال لها : ينبغى أن تترك هذه الأمور لكى تكمل توبتك لأنها اكتسبت فى طريق الشر كما أنها تذكرك بحياتك الشريرة ، ولما قال هذا أردف قائلا : لنترك ما هو وراء وهلم بنا ثم أركبها على جواده وانطلقا معاً . . . ومن يستطيع أن يصف فرحة هذا القديس فى اللحظة التى انطلق مع ابنة أخيه التائبة ؟ ! فأنها مثل فرحة الراعى الصالح الذى وجد خروفه الضال وحمله على منكبيه فرحا . وهكذا عاد بها مختطفاً إياها من فم الأسد والدب .

الفصل السابع

نهاية مفرحة

عودة الفتاة الى حياة القداسة

رجعت الفتاة الى مغارتها وهناك أمضت بقية حياتها فى إنسحاق وخشوع ودموع فى الصلوات ، تبكى خطاياها وآثامها لأن الرجاء بدأ يملأ قلبها ، ومن كان يراها وهى نائحة لا بد أنه يعطى الشكر لله ويقول لها طوباك لقد غفرت خطاياك الكثيرة !

† † †

نياحة أنبا ابراهيم المتوحد

وقد عاش القديس ابراهيم بعد رجوع إبنة أخيه وبعدما رأى صدق توبتها ومجد اسم الرب فيها ، ففرح ورقد فى الرب بسلام بالغاً من العمر ٨٥ عاماً . وكان ذلك فى ٣٠ طوبه ، صلاته تكون معنا آمين .

نياحة القديسة التائبة

« الآن يا سيد اطلق عبدك بسلام . . . لأن عينى قد أبصرتا خلاصك »

« لو ٢ : ٢٩ »

« الرب يشفى المنكسرى القلب ويجبر جميع كسرهم »

« مز ١٤٧ : ٣ »

عاشت القديسة بعد نياحة عمها خمس سنوات فى سهر ويقظة دائمة ، مواصلة الليل بالنهار فى الصلاة والإنسحاق أمام الله لعله يقبل توبتها ودموعها وكان كل من يعبر أثناء الليل على مغارتها ويسمع صوت بكائها يتحول هو الآخر إلى البكاء من فرط تأثره . وأعطاها الرب علامة الصفح عن خطاياها فأنعم عليها بمواهب شفاء فى نهاية أيامها ، فكان المرضى يأتون إليها وكانت تصلى إلى الرب من أجلهم فينالون الشفاء . وظلت هكذا حتى دنت ساعة انطلاقها من العالم فكان وجهها يضىء كالمصباح وانطلقت إلى مكان الأبرار ، صلاة هذه القديسة التائبة تكون معنا ولربنا المجد دائماً أبدياً آمين ؟

ختـــــام

وهنا نرى القديس العظيم مار أفرآم يختم هذه القصة بصلاة جاء فيها ، أما أنا أفرآم خاطئا كتبت كل ما حدث من أمر هذه القديسة وضعت قلمي وجثوت أمام الله صارخاً قائلاً. الويل لى أنا المسكين . ان أولئك المحبوبين انطلقوا من العالم ونفوسهم متقدة حباً بالله . أما أنا فقد هجم على الشتاء وهبت على العواصف وأنا عريان... إني متعجب من نفسي كيف أتوب ثم أخطئ.. ابني وفي ساعة انقض ما بنيت ، في المساء اصمم على التوبة ، واذا ما أتي الصباح أصرف نهاري في اللهو ، أرجو الرب بدموع ان يغفر زلاتي واعده بأني أسهر على حياتي ، وفي وقت الليل أنقل بالنوم ، ويلي لأن أولئك تاجروا بالوزنات وأنا خبأتها في الأرض ، هؤلاء كانت لهم فرصة التوبة ، أما أنا فربما لا يكون لي ، لذلك ارحمني يا رب وخلصني أيها الشفوق وحدك المحب للبشر ، فأنا لا أعرف آخر سواك ، أخرج نفسي من حبس الخطية ، احميني تحت أجنحتك في ذلك اليوم العظـــيم المخوف آمين . ؟